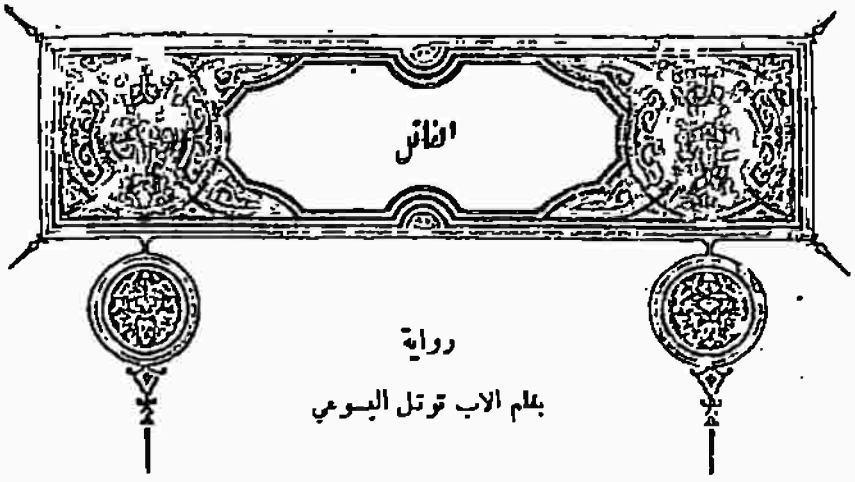

الفجيعة

في الاثنين الواقع في ٢١ كانون الاول سنة ١٩٢٥ ، الساعة الرابعة بعد نصف الليل ، كان قطار بيروت قد غادر محطة شتورة والمحدر مسرعاً ، وقد اطلق سراحه من قيود الخط الحديدي المسنّن ، وهبط اواخر سفوح لبنان الغربي قاصداً الى رياق ، حيث قطار حلب بانتظاره . وان الخط يميل ويعوج قبل ان يمتدّ منبسطاً في سهل البقاع ليبلغ محطة سعدنايل . فانطلق عليه القطار من شتورة باشدّ سرعته ، قاذفاً شرارات النار من مدخنته ، وقد لعبت بها الريح الشمالية الهابّة من سهول بعلبك . فاستيقظ المسافرون لحركة القطار السريعة ، واخذ القاصدون منهم الى المعلقة يتفقدون امتعتهم ويتأهبون للنزول ؛ لما دوّى في الفضاء صوت صفارة القاطرة متهدّجاً متقطعاً ، وبعد بضع ثوانٍ وقف القطار بغتةً .

فذعر الركاب لوقوفه في غير موضعه وميعاده ، في ذلك الليل الحالك ، وفي زمهرير كانون . واشرفوا من الحافلات ، فرأوا رئيس القطار قد نزل من الحافلة الاخيرة ومشى متوجهاً نحو القاطرة ، والسائق نصّارًا قد خرج من جهته ايضاً ، وهرول مسرعاً ، وبيده مصباح نحو مؤخر القطار ، فلاقى رئيس القطار ، فقال :

— يا لها من مصيبة دهماء . لقد هوى رفيقي مهنا الوقاد من القاطرة ، وسقط

في الفضاء ، ولا بد انه وقع على جانب الخطّ في مسافة قريبة منّا.

ما سمع الركاب كلام نصار الا تنحى رجالهم ، ونزلوا فانضموا الى عمّال القطار ومشوا الى الوراء مفتشين. ولم يلبثوا ان وجدوا على الحضيض ، غير بعيد عن الجسر ، انساناً طريحاً ، مشدوخ الرأس ، مهشّم الاضلاع ، فرفعوه فاذا هو الوقاد مهنا ، وقد صار جثة هامدة . فحملوها ووضعوها في احدى غرف حافلات الدرجة الاولى ، وظلّ بقربه بعض رجال المروءة والشهامة يحرسونه ، بينما كان السائق نصّار يحدّث بكيفية وقوع الخطب ، قال :

— عند التواء القطار ونزوله سهل البقاع ، كان مهنا قد فتح الاتون وطرح فيه الفحم واغلقه ، منحنياً ؛ ثم انتصب ، ووجهه محمى من وهج النار . ثم انعطف على جانب القاطرة ليراقب حركة سيرها فلفحه الزمهرير فاداخه وصرعه ، وما رأيته الا غاب عن نظري في الظلام.

فارتاع القوم للخبر ، وصدقوا كلام السائق ، وترحموا على الوقاد المسكين ، وتمثلوا بالاقوال التي تخطر على بال العامة في مثل تلك الاحايين ، فقال بعضهم : « نصيبه ! » ؛ وقال غيرهم : « اذا حلّ القدر فلا ينفع الحذر ! » وندبته بعض النساء ممن تذكرنّ لوثيته احزانهنّ وامواتهنّ .

شعر رئيس القطار بوجوب الوصول الى المعلقة ، فرياق ، في الميعاد المعهود ، فاستحثّ الناس على دخول الحافلات ، وساعده على ذلك العامل المؤثر التذاكر ؛ وما مضى ربع ساعة الا كان القطار قد قطع المعلقة وحطّ في رياق. وفي الحال فكّت القاطرة التي سقط منها الوقّاد وحجز عليها في مستودع خاص.

في دار العدلية

وفي ضحوة ذلك النهار كان مدير الامن العام في مكتبه في بيروت ، لما دعي بالجرس الى القبض على سماعة الهاتف . فاذا بصوت من ادارة محكمة حديد دمشق وحماة وملحقاتها ينعي اليه الوقاد مهنا ، احد اهالي قرية وادي المرّ ، ويفصل له اطوار الحادثة كما ذكرناها.

وما مضت ساعة الا قام المدير وركب سيارته قاصداً الى دار العدلية ،

ودخل على المدعي العام ليتذاكر واياه في بعض الشؤون ، وكاد امر وفاة مهنّا الوقّاد يغيب عن فكره ، لما التقى برجل واقف امام المدعي العام. كان اسم الرجل مراداً ، وهو صاحب المطعم الواقع بالقرب من المحطة في بيروت؛ وعنده ياكل ، عادةً ، عمال السكة الحديدية ، فيجلسون في حانوته ويتحدثون الى ان تأزف ساعة سفرهم ، فيسافرون . ومراد يسمع عنهم الاخبار ومن جملة ما سمعه اليوم خبر سقوط مهنا من القاطرة ، فرابه الامر ولم يصدق تفاصيل الحادثة ، كما رواها الناس عن السائق نصار . فجاء طالباً مواجهة المدعي العام ، وقال:

— قبل ان يسافر القطار البارحة في نحو الساعة الحادية عشرة من الليل ، سهر في مطعمي نصار ومهنا ، فاكلا وشربا وتحدثا . ثم ما عتما ان دخلا في جدال عنيف كان موضوعه الانتخابات للمجلس النيابي التي جرت في احدى قواعد الجبل . كان نصار زعيم الناخبين الثانويين المناصرين لحزب السيد انطونيوس ورفاقه ، ومهنّا زعيم الحزب المناصر للسيد حبيب ورفاقه . فانكر مهنا على نصار تحزّبه في الانتخابات ، فأدى الجدال الى رمي مهنا رفيقه نصاراً بقبعته على وجهه . فنهض للحال نصار وخرج ، وهو يقول : « لاشربنّ دماك » . قال صاحب المطعم : وغاب الاثنان عن نظري مشتغلين في جمهور الركاب وعدد المركبات والسيارات .

فاهتم المدعي العام بالقضية ، واستحضر السائق . وما مضى زمان الا وقف نصار امامه فاستنطقه ، فقال :

— صدق صاحب المطعم فيما رواه . نعم تعشّيت ، وسهرت البارحة في مطعمه مع رفيقي مهنا . وكلانا من ضيعة واحدة ، ورفيقا عمل وكدّ واحد . ولم تكن مجادلتنا غير التي الفنا عقدها كلما جلسنا الى سفرة الطعام والشراب ، وهل يتحدث ابناء قرية واحدة الا بشؤون ضيعتهم ؟ اما كون رفيقي رماني بقبعته فهو لا طائل تحته ، ولم احقد عليه في ذلك ، بل انفقت من كيسي ثمن عشائه وعشائي . فدخلنا المطعم متصافيين ، وخرجنا متصافيين . ولا صحة لشهادة من قال اني توعدت مهنا بشرب دماه !

وكان مراد واقفاً سامعاً للحديث ، فتلظّى غيظاً ، واصرّ على تكرار

شهادته. وتحرج المقام لان الشهادة لا تقوم بواحد... على ان المدعي العام امر بتوقيف نصار، فاوقف.

واخذ رجال التحري يبحثون في كيفية وقوع الحادثة. وكانوا مع تتبعهم آثارها يتحققون ان مهنا لم يمت حتف انفه، بل قضى ضحية جريمة مدبرة عن سابق معرفة وتعمد، دلتهم على ذلك آثار الدم الثابتة في ثياب السائق، وعلى القاطرة، فسألوا عنها نصاراً فقال:

— لما رفعت جثة مهنا، كان الدم يتدفق من رأسه تدفقاً، فتلطخت به يداي وثيابي، وحملت منه القاطرة ما حملت، فظل اثره عليها.

وكان رئيس القطار وكثيرون من المسافرين قد اجمعوا على القول ان صفير القاطرة كان قد سبق اعمال الضابطات في دواليب القطار، وان ذلك الصفير شق عنان السماء متهدجاً، كانه لهفات المستغيث، او نفسات المحتضر، مما كان ينم عن عراك وكفاح حول مفتاح الصفارة. فسئل نصار عن علاقته فقال:

— لما رأيت رفيقي هاوياً في الليل، اقشعر بدني، ومددت يدي الى مفتاح الصفارة، واطلقت فيها البخار مروعاً مرتجفاً، فتهدج صوتها.

فقال المدعي العام: ولم لم تعمل الضابطات اولاً؟ الم يكن امرها اعجل من الصفير؟

— نعم، ولكن سبق السيف العذل، فطير لبي، وافقدت رشدي...

وان تلك الجوابات لمقنعة. على ان وراءها سؤالات كانت تولد الغازاً ومشاكل، قال المدعي العام:

— لما دوى صوت الصفير في الفضاء، كان رأس القطار قد بلغ جسر نهر سعدنايل، هذا ما يشهد عليه اثنان من المسافرين كانا يشرفان من النوافذ الى الخارج، فمن المحتم اذن ان يكون مهنا قد وقع قبل الجسر، بما انه هوى قبل صفير القاطرة. ولكن لم يعثروا عليه الا بعد الجسر بمئات من الامتار، وغير بعيد عن موضع وقوف القطار بين الجسر ومحطة سعدنايل.

فقال نصار: لعل مهنا، عند سقوطه من القاطرة، علق بيد من ايديها الحديدية، او بناب من الانياب الشائكة بها الماكنات البخارية، فسحب على

مسافة ما ، وسقط فتهشم.

فلم يقتنع المدعي العام بالجواب ، لكنه لم يرفضه بتاتاً.

وشرّح الاطباء الجثة ، بعد يومين من وقوع الحادثة ، فاسفر التشريح عن ثلاثة اضلاع مكسرة ، وعن تجوّف في اسفل الرأس ، كانه موقع مطرقة مربعة قوية . فبلغوا نتيجة عملهم رجال التحري ، فسافر هؤلاء وفتشوا عن الآلات الموضوعة في القاطرة المشؤومة ، فلم يعثروا فيها على ما يزيدهم علماً في الامر الواقع . لكنهم افتقدوا المطرقة المستعملة لتهشيم الفحم الحجري فلم يجدوها .

فرابهم الامر ولم يجرأ نصار على اتهام سارق بسرقتها ، لان القاطرة باتت تحت المراقبة الشديدة منذ قدومها الاخير الى رياق . وكان ولا بد لنصار من حلّ المشكل المولد من فقدانها ، فقال :

— قد يكون مهنأ قبض عليها ، وهو منحن الى الخارج قبيل سقوطه ، فافلتت من يديه ووقعت بين الدواليب فتحطمت وباد اثرها .

فمضوا وبحثوا عن بواقي المطرقة على المسافة التي وقعت فيها الكارثة ، فلم يقفوا لها على اثر ، ورأوا من الراجح ان نصاراً اخفى الآلة المؤدية الى الكشف عن الحقيقة . وفتحوا موقد القاطرة وبحثوا في الرماد ، فوجدوا حديدة محروقة . فقال المدعي العام تلك هي المطرقة . ولعله اصاب في قوله . لكن البرهان على صدقه لم يكن جلياً واضحاً.

في محكمة الجنايات

وتناولت الصحافة القضية وذهبت مذاهبها في تعليلها . فشاع امرها في البلاد . وما مضت ايام على وقوع الفجيعة الا عُدت من القضايا الجنائية ورفعت الى الحكومة . فالتأمت في دار العدلية هيأة القضاء.

واكتظ المجلس بالحاضرين من حكام ، ومحلفين ، ومحامين ، وشهود ، ورجال شرطة ، ومتفرجين ، وغيرهم.

وكان نضار ومهنا كلاهما من ذوي المكانة والشأن في بلدتها . وبلدتها

من اهم قرى الجبل عدد سكان ، وموقعاً ، وموارد ؛ زينتها الطبيعة بزايا بديعة جمعت فيها محاسن قرى كثيرة : فهي تشرف من الاعالي على البحار ، وتباهي بانواع الاشجار من صنوبر وتفاح وكرز ومشمش ، وتكتسي بالكرمة ، وتترصع بعناقيد عنبها المجدي ، وتطرب لخرير مياه تنصبّ ليل نهار وتشحن بانحدارها من القرى ما يكفي لتوليد تيارات كهربائية ثمينة بتنوير المدن وتشغيل المعامل .

وان هذه المزايا تجعل بلدة الرجلين جنة عدن وحقيقة بان تدعى « وادي النعيم » ، لولا الغيوم السوداء المخيمة عليها ، المعكرة صفاء جوها ، الذاهبة برونقها وبهائها ، المهددة بالرعد والزوابع والدمار ؛ وما تلك الغيوم ، في الحقيقة ، الا انقسام الاهلين ومعاداتهم بعضهم لبعض . ولذلك دعيت قريتهم « وادي المرّ » .

روى شيوخهم ان ذلك الانقسام عريق في القدم ، سابق لقدوم آل نصار ومهنا الى تلك الديار . وحدثوا في تلك البلدة عن ايام سبقت العهد الهجري والفتح العربي ، انه كان فيها حزبان يتقاتلان على الزعامة وعلى ضبط موارد الرزق وكان الحزبان يتخذان من الحروب الناشبة آنذاك بين الفرس والبيزنطيين والملتحمة وقائعها في سورية ولبنان ، فرصة يتحيز فيها كل منها ظاهراً الى دولة من الدولتين الكبيرتين ، وكانا في الواقع يتسلحان احدهما على خصمه ، وهما في جوار قريب ومنطقة واحدة . وتتابعت الايام على تلك الحالة ولم تغيرها . وحدث جلاء شعوب عن البلاد وقدوم غيرها اليها . وابدلت القرى سكانها بغيرهم ، ولم تبدل باخلاقهم ونزعاتهم . وحلت فيها اسرتا نصار ومهنا ، فاصطبغت كل اسرة بلون من الوان البدع الدينية التي نشأت في القرن الخامس والسادس الميلادي . ولم يصلح الفتح العربي ذات البين بين الفريقين ، بل ساعد على التفريق التام بينهما اذ جعل لكل فريق امتيازات خاصة قسمتهم الى طائفتين . ومضت الايام وانقرضت الاعوام والعصور ، وتطوّر الزمان ، وحالة القرية لم تتغير . وأدّى أمر ذلك الانقسام المزمن الى ازمة اشتدت وطأتها في السنين الاخيرة حتى بلغت الى الحدّ الذي وصلنا اليه ، وامامنا قتيل مختبط بدمائه .

كل يعلم ما كان من امر الانتخابات النيابية التي اجرتها الحكومة اللبنانية سنة ١٩٢٥، حيث اشترى المرشحون اصوات ناخبيهم بالاصفر الرنان. فالذين فازوا بالانتخاب تسنى لهم ان يستعيضوا، عن نفقاتهم، فيما هم يتربعون في دست النيابة. اما المنخذلون فعادوا يحرقون الارم ويحفظون حنقهم وصدورهم تخفق فيها مراجل البغضاء، فتنتفخ وتتورّم الى ان تمسها شرارة فتفرقع وتدفع الى ارتكاب الجرائم تشفياً وانتقاماً.

وكان مهنّا زعيم حزبه، في وادي المرّ، ورئيس الناخبين الثانويين. فسار على رأس قومه يوم الانتخاب، وكان ذلق اللسان فصيحاً شاعراً، فجعل يلقي الاقوال ويقول الاشعار. وكانت الاغاني تزيد في هيجان الناس وتثير منهم عواطف الانتقام. وان ننسَ لا ننسَ ما بلغ مسامعنا من ادوار ذلك الغناء، والجمهور المتدفق تدفق المياه الجارة في الشوارع يرفع على الاكتاف زعيمه وهو ينشد الشعر العامي والناس تردّ عليه باللازمة:

يا مهنّا لا تهتمّ نحن زلمك نشرب دم

وكان بعض المتفرّجين يتسون لدى تلك المشاهد ويطربون لتلك الاناشيد. لكن امرها لم ينتهِ بالسلام. لان المعركة الانتخابية اسفرت عن مناوشات وجرحى وقتلى في بعض القرى. اما في قرية وادي المر فهدأت نارها وخمدت تحت الرماد الى ان وقعت الفجيعة التي ذكرناها.

واتهم آل مهنّا نصاراً بالقتل، ورفعوا شكواهم الى الحكومة. وقام آل نصار فاوقفوا المحامين للدفاع عن ابنهم. وانقلب مجلس الحكومة ساحة معركة يسفر امرها لا عن معرفة البرئ من المجرم، ولكن عن تفوّق حزب على حزب، وأسرة على أسرة، وطائفة على طائفة.

على انه كان في مصاف الحكام رجل ذو فطنة واستقامة ومقدرة اسمه السيد ابراهيم. ولم يكن من المتوظفين في القضاء، لكنه دعي الى حضور الدعوى ليبدي فيها رأيه، ويكون مرشداً حكيماً يهتدي به القضاة الى الحكم بالعدل والاستقامة.

وكان ابراهيم يقف على تفاصيل القضية ويرجح في قلبه ان نصاراً جانياً

قاتلاً ، لكنه لم يقتل عن تعمد ، ولكن زيغاناً وتهوراً !

وكان يعتبر نصاراً ، على ما سمعه عنه ، كالانسان الذي سماه الرومان في اصطلاحهم الحقوقي *impotens* ، او العاجز ، اي الغير متمتع بكامل قواه ، الواجب نبذه من المجتمع البشري لانه لا يستطيع ضبط النفس عن اهوائها الامارة بالسوء .

جلس ابراهيم في مقدمة المحلفين من اعضاء المحكمة واتوا بالمتهم ، فما القى عليه نظره الا تغيرت سرائره وتبددت غيوم الهواجس من قلبه . اول ما وقف نصار بين يدي الحكام ، ادهشهم برباطة جأشه وهدوءه المجرد من كل غطرسة وعجرفة . كانت اماراته امارات انسان حسن الخَلق والخُلق ، ذكي ، نظيف ، هادئ ، رزين . امن الممكن ان يكون ضميره مثقلاً بالجريمة ؟

اختلف الشهود على المحكمة سحابة يومين ، واجمعت شهاداتهم على تأييد الادلة التي رفعها اليها المستنطق ، وحاول الاستاذ خطار الخليل ، المحامي عن نصار ، ان يرمي الشبهة على صدق مراد ، صاحب المطعم ، ليكذب شهادته . فلم ينجح في جذب المجلس الى رأيه .

ومن البديهي ان المرء لا يكذب ان كذب الا لداع ما . ولا داعي يدفع صاحب المطعم الى الشهادة بالزور ، وهو مع ذلك يصر مملناً على اعلانه على رؤوس الملأ انه سمع نصاراً يتهدد مهنا « بشرب دماه » . وهذا الاصرار في الاثبات لا مفسر له سوى ان مراداً يشهد بما سمعه ويبديه بلا زيادة ولا نقصان . وقد اعاد شهادته مراراً وايدها بالأيمان المحرجة .

وثقلت وطأة الساعة على القضاة في جو مسموم بانفاس مئات الحاضرين المحتشدين في قاعة الحكم ، وتكهرب الجو وتلعثمت الالسنة في الافواه وضاقت الصدور وتوترت الاعصاب . وكان الحضور في القاعة متحمسين كل لحزبه ، فتظاهروا بالضجيج والصخب حتى الجأوا رئيس المحكمة الى رفع الجلسة مرتين . وكان على المحلفين ان ينظروا في تلك المهمة الى القضية بعين صافية ، والقضية مبهمة غامضة وقد غشتها خطابات المحامين ومثالطهم بظلام حجب حقائقها عن البصيرة .

وكانت الساعة رهيبةً امام الله وامام البشر . وليست هي للمناظرات والتفكير ، بل للحكم والقضاء والتدبير . وكانت القضية مبسوطة امام المجلس على هذه الصورة :

ان التهمة الواقعة على نصار مثبتة بادلة راهنة وثيقة ، ولكن دونها موانع ادبية راجحة . لقد شهدوا على نصار بالاستبداد برأيه والمطالبة بحقوقه بعنف وشراسة . وقالوا ان له سوابق في بلدته حيث لا يقف بوجهه خصم ولا معارض . ولكن ، أيتخذ من ذلك سبب كافٍ لتأثيمه ؟ امن المعقول ان يتخذ الرجل من جدال بسيط في قضية انتخابات قروية داعياً للحقد والنقمة ولقتل رفيقه اغتيالاً عن تصميم وتعمد ، بطرقة الحديد ، وهو على ذلك يخترع الاختراعات الكاذبة ازالة للشبهة عن نفسه بحكاية مستغربة يقصها على الناس ؟ كأنها ان تلك الحكاية ليست مختلفة بل واقعية . والا فهل من الممكن ان يحفظ نصار هدوءه ورباطة جأشه وصفاء سريرته الدالة عليها اماراته الواضحة ؟ فضلاً عن انه لم يتردد بكلامه البتة ، ولم يبدِ كلمةً واحدةً مغالطة لما سبق من كلامه عن براءته .

وكانت افكار الحكام تتقلب على احرّ من جمر بين الشك واليقين . كيف لا ؟ وعار عليهم ان يحكموا لنصار او عليه ، وهم على غير يقين من معرفة الحقيقة .

ووضع الندى في موضع السيف بالعلى مضرٌ كوضع السيف في موضع الندى

وان جزعة الحاكم نحو الوطن ، ان هو برأ المذنب ليست دونها فتلاً ان حكم على البري . وكم من قاضٍ في مثل تلك الساعة يفضل لو اتيح له ان يبقى بمعزل عن تلك المسؤولية ، مرتاحاً في خلايا مكتبه ، عاكفاً على الدروس والمطالعة في عالم النظريات ! حقاً ان حمل القضاء لثقيل على البشر ، ومقامهم مقام الديان بين الناس . ومع ذلك فالقضاء واجب لازب ، والعدل اساس الملك والعمران !

تأمل السيد ابراهيم حراجة الحالة وقال :

— هناك مغمضات يجب الجلاء عنها فاسأل المحكمة المحترمة اعادة النظر في

الحجج والبينات عسى ان نبلغ كامل التحقيق فلا يبقى مجال للريبة في كيفية ارتكاب الجريمة.

وكان السيد ابرهيم يرى ان تملّق الجثة بالقاطرة على مسافة مئات الامتار قبل سقوطها امر مستحيل . لكنه ابى الا ان يدعم رأيه بعلة راهنة فركب وسائر المحلفين سيارة اقلتهم على جناح السرعة ، من بيروت على طريق الشام ، الى اعالي لبنان ، الى رياق ، حيث ملتقى الخطوط الحديدية ، ودخلوا المستودع الذي حجزت فيه القاطرة ، فتفقدوا شؤونها وتحققوا ان الوقّاد عند سقوطه منها لم يعقه عائق ، بل هبط توّاً الى الحضيض ، واجمعوا على ان نصاراً لم يصدق فيما قاله عن تعلق مهنا بشانكات القاطرة.

وطلب السيد ابراهيم معاينة قطعة الحديد المحترقة التي كشف عليها في الرماد ، فوضعت في الميزان ، فقدر وزنها مقدار وزن الآلة المستعملة في الشركة ، والمطارق المستعملة في تهشيم الفحم كلها على طراز واحد . فعادت اذاً لجنة القضاء الى بيروت ، وهي على يقين ان نصاراً قاتل.

اَوَ لا يكون بريئاً ؟

عقدت المحكمة جلسة جديدة ، ووقف المدعي العام سارداً تفاصيل الجريمة ، وسأل القضاة القسط في الحكم ، واليك ملخص خطابه:

نصار رجل عنيد ، متكبر ، حقود . خرج من معمعة الانتخابات في الصيف الماضي ، ومراجل البغضاء تغلي في قلبه ، تضغط عليها وصبر . وصار ينظر الى مهنا شزراً نظره لعدوه الشخصي الذي سلبه نفوذه وجاهه في بلدته ، متذكراً الحزازات القديمة التي قسمت بين آل نصار وآل مهنا . ولم يسبر مهنا المسكين غور البغضاء المحفوظة عليه في قلب خصمه ، ولم يذكر قول الشاعر :

اذا كان في صدر ابن عمك احنة فلا تستثرها ، سوف يبدو دفينها ،

فاثارها ، ورمى بتبعته نصاراً بينما كانا على العشاء في المطعم . فتركت الاهانة في صدر نصار نيران الحقد . فسكت على ان يستنح الفرصة في حينها فيشفي غليله . وها ان الساعة دقت ، وكلاهما على القاطرة في الليل الدامس ،

والقطار يتسرب ويتلوى كالافعى في سهول البقاع . وفتح الوقاد باب الاتون ، وانحنى ليقحم فيه الفحم ، وتناقل عن المطرقة . فقبض عليها نصار ورفعها واسقطها من اعالي رأسه على مؤخر جمجمة رفيقه فشدخها . ولم تكن تلك الضربة لتقضي على مهنا ، وهو جباري البنية قوي الاضلاع ، فانتصب وحاول القبض على مفتاح الصفير . فمدّ اليه يده ومسّه ، فتحرك وسمع صوت الصفير ، ثم تقطع لان نصاراً حال دون انطلاقه . وحدث عراك . وما هي هنيهة الا سقط الوقاد مصروعاً . فطرحه رفيقه السائق خارج القاطرة ودس المطرقة في الاتون ، وهي الشاهد الوحيد على الجريمة . ثم اعمل الضوابط في القطار ، ومسح يديه الداميتين ، واخذ مصباحه ومضى في طريقه يلاقي رئيس القطار الذي اتى لمقابلته . فارتكب اذن نصار الجريمة عن سابق علم وتعمد .

ووقف رجلان للدفاع وهما الاستاذ رشيد ابو يوسف والاستاذ خطار الخليل ودعم الاول خطابه بان حجة الخصوم واهية . وقال ان بيناتها لمن يحدق اليها اجمالاً تظهر كانها الجبال الراسيات . اما حقيقتها لمن يتبصر بها واحدةً واحدة فهي اوهى من خيط العنكبوت .

ثم اردف : «وما عسى ان تكون تلك البينات ؟

«شهد صاحب المطعم ، وشهادته مردودة لانها صادرة عن رجل فرد ؛ فضلاً عن ان الشاهد من المدمنين على شرب الخمرة ، وهو ممن لا يعوّل على كلامهم . اما الدماء الثابتة آثارها على ثياب نصار ، وعلى اطراف القاطرة ، فعلاتها انها انتقلت من ايدي نصار بعد حمله رفيقه المهشم الرأس . ولا حجة على نصار تكون جثة مهنا سقطت بعد الجسر ، وقد يكون المقتول قبل سقوطه قد تشبث باليد الحديدية الملتصقة بجانب القاطرة . فتعلق في الفضاء بضع ثوان ، ثم هبط بعد مئتين او ثلثمئة متر عن المكان الذي هوى منه .

«اما المطرقة الحديدية فلا يبعد عن العقل ان يكون الوقّاد طرحها سهواً في الاتون مع الفحم .

«امن العدل اذن ، والحالة هذه ، ان يتخذ القضاة من تلك البينات حجة دامغة ، والبينات باطلة اساساً ، وتفسيرها عن غير طريق الجريمة معقول مقبول .

وختم المحامي الاول دفاعه قائلاً : « لا اسألكم العفو عن نصار ، ايها السادة ، ولكن اسألكم الفطنة . فاذا قضيتم فاقضوا عن برهان وعن يقين . »

ووقف الاستاذ الخليل ، وهو المحامي الثاني ، وتناول القضية من وجوهها الادبية . وكان لسناً فصيحاً يؤاتيه الكلام ، فيستميل القلوب الناقرة ، ويردّ الاهواء الشاردة ، وكان اختصاصياً بالقضايا الجنائية يتخذ منبر الخطابة سلماً يتسلق به سماء الزهو والعجرفة ؛ فيحلّ كلامه من قلوب العامة محلاً رفيعاً . اما الخاصة فقد تعرض عنه ، لانها تأبى ان تقتنع الا بالبراهين الصادقة ، اما المغالطات والسفسطات فتثير استهجانها واشمئزازها .

حاول المحامي الاول الاستاذ رشيد ابو يوسف التبيان ان بينات الجريمة لم تتحقق مادياً . اما الاستاذ الخليل فتخطى الى ابعد من ذلك ، واخذ يبرهن عن عدم امكان وقوع الجريمة ادبياً . وخلاصة كلامه أن نصاراً رجل دين ، ابو عائلة صالحة ، وله سنون عديدة عاملاً في شركة السكة الحديدية ، ولم تلحق به شائبة قط . وهو وكيل كنيسة قريته ، وممثل طائفته في الانتخابات ، فهو اعلى مكانة من ان يتنازل الى ارتكاب الجريمة الفظيعة المتهم بها قال :

« كلا ، ثم كلا ! لا يتحول الحمل الى وحش ضار بلمحة العين . لا عاقل يصدق هذه الاكاذيب ، ولن يصدقها احد . والحقيقة هي ان البغض الدافع الطائفة المعادية لطائفة نصار والحزب المقاوم لحزبه ، هو الداعي الحقيقي لالقاء الشبهة عليه . وليس الخصام ، في ساعتنا هذه ، بين شخص وشخص ؛ انما هو بين طائفة وطائفة ، وسياسة وسياسة ، واسرة واسرة . وان يكن نصار مذنباً ، فذنبه لا لكونه قتل مهنا ، ولكن لكونه فاز بالانتخابات ، ورفع لواء قومه ، ونكس اعلام حزب مهنا . »

وكان بهو المحكمة مكتظاً بالسامعين من ذوي نصار واقربائه ، فانطلقوا بالتصفيق والاستحسان لما سمعوا المحامي يتكلم بفصاحته المعهودة . وكان قوم من الناس واقفين خارج المحكمة مزدحمين على ابوابها ، لم يجدوا مجالاً الى دخولها ، فظاهروا وصفقوا من الخارج لما بلغهم صدى كلام الاستاذ الخليل . واتخذ هذا من المظاهرة فرصة للتعرض باهواء العامة طبقاً لمرامه فقال للقضاة :

«ان انتم حكمتم على نصار ظلمتموه. واعلموا ان الشعب اعلنه بريئاً ، وانما صوت الشعب صوت الله .»

فدوى المجلس بتصفيق العامة ، ونهض الرئيس وخرج ، وتبعه الاعضاء للمذاكرة ، وكانوا اثني عشر ، عليهم العمدة في تقرير الحكم وكان السؤال مطروحاً عليهم كما يلي :

«هل قتل نصار مهناً ام لا ؟»

فانقسموا في الجواب : ثلاثة منهم قالوا نعم ، واربعة قالوا لا ، والباقون امتنعوا عن التصويت . واخذوا بالمذاكرة الشرعية . فتكلم فيهم السيد ابراهيم وقال :

لا يغرنكم سادتي ، ما سمعتموه من اقوال الاستاذ الخليل ، وهو لا يليق بمجلس مسؤول عن نظام البلاد وحياة العباد . لقد كان خالجني الريب لما سمعت دفاع الاستاذ رشيد ابي يوسف ، وصرت اتردد في واجب الحكم على نصار . ولكن لما تدفق الاستاذ الخليل كالتيار الجارف مهيجاً اهواء الرعاع مغتصباً ضمائر القضاة ، مهولاً اياهم بسخط الشعب عليهم ان لم يبرروا القاتل ، اشعرت بوهن حجته . ان القلوب المستقيمة تأبى الرضى بالكذب والبهتان . وقد يكون من الجنون ان تعفو عن المذنب الاثيم تصدية لصوت المحامي المطرب ولفصاحته الرنانة . لا لا ان لسان الحال يشهد بالحقيقة . لقد وقعت جرية فظيمة فلا بد من عقاب مقترفها . وليس للنزعات الطائفية في القضية ناقة ولا جمل .

أثر كلام السيد ابراهيم في قلوب الاعضاء المحلفين ، وجذب الى رأيه اصوات المترددين في حكمهم فاسفرت المذاكرة عن تأثيم نصار بسبعة اصوات ضد خمسة . وعادت هيئة القضاة الى المجلس فوقف السيد ابراهيم واسترعى الاسماع ولفظ الحكم . وعقب اصدار الحكم هدوء كأنه السابق للزوبعة ، فزاد في هيبة المقام . ولم يتله انفجار ولا تظاهر بل سكوت وجمود ، كسكوت المقابر وجمود الليل . وخيل للسامعين انهم يسمعون صوت وخز الضمير ينخر النفوس . وانتصب نصار ، والتقى نظره بنظر السيد ابراهيم ، فلم ينكس البصر ، وقال برباطة جأش وثبات :

— لقد حكمت عليَّ ظلماً . وانك لفي ضلال . والله العظيم ، اني بريء ، وولدي غير حقيق بان يدعى ابن القاتل !

ثم شهق وانقطع صوته بالنحيب ، فهبط على كرسيه مغرقاً بالدموع .

وانحلّ المجلس ، وصرف رجال الدرك الجماعة . وعاد القضاة كل منهم الى بيته وآله . ودخل السيد ابراهيم مخدعه واجماً ، اليم الفؤاد ، وقد ساورته الشكوك ، وتوزعته الفكر . وحاول الرقاد فهجره فتمثل بقول بشر

فبتُّ مسهّدًا أرقاً كأني تمشّت في مفاصلي العُقار

ويل للظالمين !

ومضى على الحكم اربعة ايام تناوبت فيها نفس السيد ابراهيم ساعات الانخطاط والهواجس ، ولم تفارق مخيلته صورة نصار ، لما وقف في المحكمة متظلماً ، محدّدًا اليه نظره ، ملقياً عليه تبعة الحكم الجائر ، ومنادياً ببراءته على رؤوس الملا .

تكلم ، وكان في كلامه لهجة الصدق والاستقامة . فتصدت له جوانح السيد ابراهيم ، واضطربت . وصار اذا اعاد في ذاكرته تفاصيل الحادثة ، اعتراه الوسواس ، ودفعه الى الريبة في عدالة الحكم الذي اصدره . وقال في نفسه : لقد اشعرت ببراءة الرجل وربما كنت برأته لولا سماعي مدافعة الاستاذ الخليل التي اثارت فيَّ اشمئزازًا ونقمة تحولت بدافع رد الفعل الى قساوة في القضاء . ولم يتمالك نفسه ان مضى قاصدًا صديقه الاستاذ رشيد ابا يوسف المحامي . فبادره الاستاذ وقال :

— اراك مكتئباً حزيناً شاحب الوجه كانك سهرت الليالي .

فقال السيد ابراهيم : صدقت . وهمي العظيم كوني جزمت رجلًا بريئاً .

— الراجح عندي انه مجرم !

— ومع ذلك ، فقد دافعتَ عنه . اذن انك اني ضلال ؟

— عزيزي ، فاتك ان واجب حرفتي يربط لساني عن الكلام لو ان نصاراً اسرّ اليّ بذنبه ، لحفظته في دفائن قلبي عنك وعن اي خليقة كانت . ولكن ،

في الحقيقة ، لا اعرف من الحادثة غير ما تعرفه . واما مدافعتي عن نصار فقد قضى بها الواجب وقمت بها كما علمت . وعلى كل الاحوال ان يكن هذا الرجل قد ارتكب الجناية فانه لداهية من الدواهي . لانه في مختلف المواقف ، لم يبدِ علامة وهن ، ولم يلفظ لفظة واحدة دالة على مواربته وكتمانه وخداعه . فقد يمثل دور البريء وهو اثيم ، على اتم الحذاقة والفن . فاطرح عنك الهموم والهواجس . فان تبرير المرء نفسه لا يقيم حجة وبيّنة له . وانا ، الذي دافعت عنه بالامس ، اعترف لك اليوم ان حجتي كانت واهية.

— ولكن انا . . . انا المسؤول عن اصدار حكم الاعدام وقد دفعت اليه زملائي اثناء المذاكرة.

— لم احضر المذاكرة ، ولكن لا اتردد في القول انك المسؤول عن قرارها النهائي.

— اذًا انا المذنب ؟

— مذنب ؟ كلا ثم كلا . لقد امرك ضميرك فطاوعته فحسبك . وقد يضلّ الضمير ولا جناح عليه ، ان صدر الضلال عن نية صالحة . اما انت فقد حكمت طبقًا لما رأيته اقرب الى الحقيقة.

— وهل كنتَ تحكم بغير الحكم الذي اصدرتهُ ، لو كنت في مكاني ؟

فسكت الاستاذ رشيد ابو يوسف كأنه حائر في امره . ثم قال :

— لا شاهد في القضية الا رجل واحد ، فشهادته مردودة ، وقد ردها المتهم وانكرها بعزم وشدة . والرأي الارجح عندي هو ان يطلق سراحه .

فزاد هذا الكلام في اضطراب السيد ابراهيم وسكت . فقال المحامي :

— لم تفت الفرصة فترجع عن تدارك الاول . وبلغني ان الاستاذ الخليل يحاول ان ينال عفو رئيس الجمهورية عن المحكوم عليه ، فايذن لي بعرض امر وسواسك وندمك على الحكم الذي اصدرته ، وانا قمين بان نصارًا ينال العفو .

كاد السيد ابراهيم يقبل بالنصيحة . ولعل غيره ممن هو اقل استقامة منه كان قد طرح عنه ذلك الهم وقال في نفسه : ما لي وهذه الهواجس . مات مهنا فلن يعود الى الحياة ، أَجَرَمَ نصارٌ او لم يُجرِم . ولكن القاضي العادل فكر في نفسه وقال : لا يحق لي ان اطلق سراح نصار ، على ما ثبت عليه

من ادلة الجريمة دون ان اتيقن انه بريء منها . والا فذنبي نحو البلاد جريمة جديدة . والتفت الى المحامي وقال :

— لا . اصبر عليّ ثلاثة ايام .

ومضى كل منهما الى شأنه .

وعند المساء زار السيد ابراهيم رئيس المحكمة ، وعرض عليه اسباب اضطرابه وبلباله . فتعجب الرئيس وقال :

— ما عسى ان يكون قد جد منذ البارحة حتى غيرت افكارك ؟ هل انت يا ترى مخدوع بما قاله نصار تبريراً لنفسه ؟ ايخفى عليك ان شرّ المذنبين في الغالب لا يقرّون بذنبهم امام الحكام . وهم يتظلمون دوماً من جور المحاكم ، ويعلنون براءتهم . ولكنهم كذّابون منافقون .

— اني اقرّ لك يا سيدي الرئيس ان صدق لهجة المتهم قد أثرت فيّ كل التأثير .

— لقد مثل دوره بحذاقة عجيبة . انما هذه خزعبلات وخدع لا ينغش بها من قضى سنوات في مهنة القضاء .

— لقد حصحص لك الحق المبين ، وثبت لك ان هذا الرجل قاتل اثيم ؟

— لا اشكّ في اثمه . والحكم في امره عادل . واني لاهنئك على شجاعتك في اصدار الحكم . لو ان لجان القضاء جماء تتصرف في المحاكم تصرفك في اللجنة التي ترأستها ، لكان الامن مخيماً على البلاد ، من اقصاها الى اقصاها .

— ان كلامك سيدي لا يهديء وخز ضميري . ايذن لي ان استرد حكمي الذي اصدرته .

فاهتز الرئيس لهذا الكلام وقال : اياك ثم اياك . . . والا فضحت الحكومة عند الناس ، فيعيرونا بالجبن ، والخوف من تهدّدات جماعة مهنا وطائفته .

— سيدي الرئيس ان امر الطائفية والسياسة لا دخل له في الحالة الحاضرة . وما احرانا بان ننسى اقوال الاستاذ الخليل ، ودفاعه الذميم باسم الطائفية . فلا نكون لها ولا عليها . ان محور القضية يدور على حياة هذا الرجل وشرفه ، فاسمح لي بمراجعة اوراق دعواه كلها . فسوف ابحث فيها وحدي على عزلة وهدوء ، فاكون على بصيرة كاملة من الحقيقة ، وسوف اوافيك بقراري بعد ثلاثة ايام .

وخرج الاستاذ . وفي اليوم التالي اخذ الاوراق وراجعها من سطرها الاول الى الاخير . فاطمأن باله لقراءتها ، لان حوادثها المتسلسلة كانت تجرّ حقيقة الجريمة ، كما تجرّ المقدمات النتائج . ولاحظ ، في اطلاعه على حياة نصار ، ما لم يفطن اليه احد قبله ، وهو ان الرجل كان ابن تاجر سكير مات انتحاراً في المهجر . فورث ابنه عنه عاداته فتأصلت فيه الملكات النميمة وكانت تشتد وطأتها عليه . حتى انها كانت تفقده رشده وتدفعه الى شر الاعمال . وهي التي ادّت به الى اغتيال رفيقه . ولعل الرجل الناقد اللب غير مسؤول عن اعماله تماماً ، تجاه ضميره . اما تجاه الحكام وتجاه البشر فلا بد ان يجازى بالقصاص الذي استحقه ويُطرح خارج المجتمع فيُنبذ منه نبذ النواة .

فقر من ثمّ قرار السيد ابراهيم على ان يترك القضاء ينفذ الحكم فتجري المياه في مجاريها . وحاول الاستاذ الخليل طلب العفو من رئيس الجمهورية . ولعل ابراهيم كان يتمنى صدور ذلك العفو فتنتهي المأساة بفصل يردّ نصاراً الى سلامة الحياة ، وضميره الى الراحة والسكينة ، وقد امسى في حالة شقاء نفسية لم تفارقه منذ اخذ على عاتقه البتّ في القضية .

وما مضت ايام الا شاع الخبر ان رئيس الجمهورية رفض العفو . وكانت في اثنائها قد تعددت الجرائم في البلاد فكان لا بد من القاء الرهبة في قلوب الناس . فحكم المجلس بالاعدام على نصار لقتله مهنا تعمداً ، وظهر بلاغ العدلية في الصحافة معيناً اعدام نصار شنقاً في اليوم التالي .

حيث روحهم لا يموت !

كان السيد ابراهيم مقتنعاً بان نصاراً قاتل مهنا ، ومتيقناً انه لا سبيل لاعادة النظر في الدعوى . ومع ذلك كانت الهواجس تقتحم نفسه لان في حياة ابن آدم الفكرية طبقتين : طبقة اليقين التي يرتاح فيها البال الى ما يراه معقولاً بذاته متفقاً منطقياً مع القرائن اتفاق النتائج مع المقدمات . وطبقة ثانية هي طبقة الخيال والشعور تداهم الانسان عن ضعف في مزاجه ، اذا ما افرط في اجهاد النفس قياماً بعمل خطير او حذراً من شر عتيد . وكان الوسواس الذي اعترى نفس السيد ابراهيم منذ اصداره الحكم على نصار يمثل في مخيلته ذلك

الرجل الشاب القوي المـادئ يناديه بصوت اليأس والتظلم : انا بري ! انا بري ! وكان ذلك الصوت ينساب في صدر السيـد ابراهيم كانه دود الضمير الناخر . عبثاً حاول ان يخنق انينه في السهرات يقضيها في المنتزهات ، تارة في بيروت على شاطئ البحر ، وطوراً في مصايف الجبل.

كان اذا ما نظر الى الحالة بعين البصيرة ، رأى الخيال يتلاشى . واذا ما اطلق السراح لمخيلته القوية تمثل بفكره شبح السائق نصار واقفاً امامـه ماقياً نظره عليه بحدة تخترق الصدور ، قائلاً : انا بري.

وكان التناقض بين الحالتين في نفس السيـد ابراهيم مما حطّ من قواه واسقطه في اعتبار نفسه . فكان يقول في نفسه : اقاموني حاكماً على الناس ، ولست قادراً على الحكم بصواب ويقين . قد طالما قضيت ايامي بتمرين الفكر على الاصابة ، وها انا رميت سهمي فطاش . ومنذ صدر الحكم على نصار ، كان السيد ابراهيم قد التقى بعضوين من الاعضاء الذين صوتوا في لجنة المحلفين وكان احدهما قد حكم بتبرير نصار فسأله رأيه ، وهما على انفراد فاجاب :

— قد خطر على بالي ان نصاراً مجرم . ولكن كم من مرة ضلّ الحكام في حكمهم وجاروا . ففضلت ان لا الطخ يدي بدماء المتهم.

اما العضو الثاني فلما سأله ابراهيم عن امر سبب تجريمه نصاراً قال :

— انه قاتل ، والقاتل يستحق القتل ، وان لم ينفذ فيه الحكم ، اكلت الناس بعضها بعضاً كالوحوش الضواري.

وكان كلا الرجلين قد نظرا كل واحد الى طرف من اطراف القضيـة ، فادى بهما نظرهما الى نتيجتين متناقضتين.

وبلغ السيد ابراهيم انهم في الغد يعدمون نصاراً في ساحة العدليـة . فآلى على نفسه ان يبذل غاية الجهد لعله يصل الى الوقوف على الحقيقة بتمامها ، من فم القاتل نفسه . فقصد الاستاذ رشيداً ابا يوسف وقال له :

— ايمكنني ان ازور نصاراً .

— وما عسى ان تفيدك زيارته ، فانه لن يبوح بسره !

— اني اسألك ان تساعدني على الوصول اليه.

— لا بد من ان تراه ؟ اذن كن على باب سجن الرمل اليوم ، في الساعة الثامنة مساء .

في سجن الرمل

وما ازفت الساعة الا وقفت سيارة امام باب السجن ، فنزل السيد ابراهيم . وكان هناك الاستاذ رشيد ابو يوسف بانتظاره . فكلم علي افندي مدير السجون . وامر المدير فحضر السجان وبيده المفاتيح ، وسمع اوامر المدير . فمشى وتبعه المعلمي والسيد ابراهيم فاجتازوا اولاً دهليزاً بنيت على جانبيه غرف الحراس وبيوت المطابخ . وهما هم في صحن الدار ، وهي مطوقة بسور عالٍ واسع ، والمساكن فيها مبنية على طراز منظم يساعد على ضبط مرافق السجن . هناك بنايات تتفرع على شكل اصابع اليد الخمس اذا تبسطت . كل بناية طولها يزاهي الثلاثين او الاربعين متراً ، وهي عبارة عن دهليز ضيق طويل تمتد على جانبيه المساكن على اختلاف انواعها من قاعة كبيرة تسع زهاء الاربعين سجيناً ، وتسمى القاعة « قاووقاً » اصطلاحاً عن زمن الاتراك . وهناك غرف صغيرة يقيم فيها السجناء وحدهم ، او برفقة رفيق واحد ، وهم في منعة من مخالطة الناس ، وكل غرفة من هذه الغرف تسمى «زردانا» .

وفي دار السجون بناية خص جناحها الشمالي بالمرضى ، وجناحها الجنوبي بمن اقترفوا جريمة كبيرة ، وهناك مقام المحكوم عليهم بالاعدام .

الى ذلك الجناح مضى السجان فوقف امام شبكة الحديد ، ودعا اليه الموظف المقيم في الداخل ، حارساً ابواب غرف المجرمين . فسأله هل الاقفال داخلاً محكمة القفل كلها . فقال :

— لا خطر عليكم تفضلوا .

وكان الظلام قد انتشر في الدهاليز ووضعت قناديل في زوايا المكان هداية للسائر في الليل . وكانت رائحة الجدران الرطبة المملحة تهبّ على الداخل ذلك المكان المظلم ، فيخالها بخاراً متصاعداً من قدر غلي فيه الماء والصابون لغسيل الثياب القذرة . ووقف الحارس امام باب غرفة قد ثقب نصفه الاعلى بطاقة مساحتها مساحة الرغيف الصغير . وربما ضيقوا على السجين فسموا على تلك

الطاقة تنكةً مثقوبة بثقبين او ثلاثة يتاح للسجان ان يراقب منها حركات المسجون . اما هذا فلا يستمدّ بصيص الضياء الا من طاقة صغيرة مشبكة بالحديد واقعة في اعلى الجدران .

دخل المحامي اولًا على نصار ، وظل في غرفته هنيهة ثم خرج . ودخل من بعده السيد ابراهيم . هناك على الحصير وضعت فرشة وعليها نصار قد جلس القرفصاء وامامه شمعة موقدة وبيده كتاب.

فنادى السيد ابراهيم السجين باسمه .

وما كان السجين ليعرف الزائر لولا صوته فنهض لساعته ، وانتصب وقال:

— لماذا اتيت اليَّ وماذا تريد مني ؟

قال ابراهيم :

— اتيتك مستخبرًا.

— وما عسى ان يكون الخبر الذي تستقصيه ؟

— اتيت استقصي الحقيقة .

وكان صوت السيد ابراهيم ينمّ عن تأثر عظيم . فارتعش السجين وجمد . ثم ارتخت اعصابه وخطا خطوةً الى الامام ، وقد طرقت رأسه هالة كانها البخار المتلوّن باشعة الشمعة الضئيلة . وكان طربوشه القاتم ، ولحيته الكثّة ، وثيابه الفضفاضة القذرة قد اسدلت على هيئته كلها امارات الشقاء والتعاسة . ولكن عينيه لم تزالا وقادتين تحدقان الى الزائر كانهما ضلعا ملقط حديدي.

فقال ابراهيم :

— يا نصار ! غدًا سوف تظهر على ساحة العدل الاعدام وذلك الاعدام صدر من المحكمة عن لساني ، وبعلمي ، وارادتي . ولست بآسف على ما صدر مني لانك قاتل مهنا.

فقال نصار :هذا كذب ومين !

— انت الذي طرحته خارج القاطرة وقد بلغت منه الروح التراقي.

— هذا كذب ومين !

— ثم القيت المطرقة الدموية في الاتون.

— قد حلفت اني بريء !

— نعم حلفت ! وبما انك حلفت فها قد اتيتك الآن ، واني على يقين من كذبك ونكرانك للحقيقة . وقد افرطت في الكذب حتى هجت هواجسي ، وسلبتني راحتي . ان البيّنات عليك عديدة هائلة . ولا داعي واحد قد يحول دون اعتقادي بانك مجرم... الا كلامك الذي ما زلت تردده انك بريء ، فهو يرميني في الشك والريبة من امرك . وان كذبك لمثير في صدري نار حزن وشجون واضطراب . استحلفك بالله قل . قل لي الحقيقة .

فنظر المجرم شزراً الى حاكمه ، ثم عاد فانطرح على فراشه وهز كتفيه متهكماً وقال : اذن لقد فتح سيدي الحاكم صدره الى صوت العدل والشفقة . ولكن ما عسى ان يفيده اقراري ، ولات ساعة ندامة ، ولا مناص من الموت !

— نعم لات ساعة ندامة ! وقد رفض العفو عنك ولا سلطة بشرية تنقذك من تنفيذ الحكم فيك . واني درست سجلات دعوتك وفحصتها كلها ، وكلها تشهد فيك بالجريمة . وهبني اني تيقنت براءتك فلست استطيع مساعدتك ، فخابت اذن آمالك كلها . وما من امل من وراء كذبك .

— لم اكذب قط !

— قد ينكر المذنبون ما يتهمون به ضناً منهم على شرف اسمهم ، وكرامة اسرتهم . وانت تخفي الحقيقة مثلهم . ولكني اعدك باني وحدي اسمعك فلن افشي بسرك .

— اتعدني ، وانت لا تصدق كلامي ، فكيف...

— رويداً يا نصار . هل انا اتيتك لأمثل رواية هزلية . لقد صرفت حياتي في القضاء ولست بطالب مكرمة ولا مال . وليس لي الا مطمع واحد ، وهو ان اموت في راحة الضمير . انظر اليّ . ما بالك تواري بصرك عني . على مَ تؤنبني ؟ اعلى كوني حكمت عليك ؟ وانما حكمت عن واجب لم يطاوعني ضميري في مخالفته .

— واجب المتطرف المتحيز للطائفية العمياء !

— واجب الحاكم المسؤول عن نظام البلاد ، وعن حياة العباد . وعلى كل

حال فقي هذه الساعة ليس في هذا المكان حاكم ولا محكوم . بل هنا رجلان كلاهما يتألمان : انت لما يحلّ فيك من القصاص ، وانا لكوني اسير شجوني وقلقي ، وقد حكمت ولم انل اقرارك التام.

وكان ابراهيم واقفاً كانه المتسوّل المتوسّل . اما نصار فقال همساً :

— لم اقتل مهنا .

— اذا هذا هو جوابك الذي لا مردّ له !

— نعم !

فادار السيد ابراهيم ظهره وتأهب للخروج وقال :

— الوداع يا نصار . ان نكرانك لا يقنعني ببراءتك ، لكنه يطرحني في الوسواس والاوهام طيلة حياتي . هذه نقمتك عليّ . فقد اثأرت مني ، وتشفيت.

وتخطى السيد ابراهيم الى الباب ثم التفت واذا بنصار قد قبض على اطراف فراشه ، وحدّق نحوه بصره ، كما كان قد حدده في المساء الذي سمع فيه الحكم ، واجاب بصوت متقطع كانه قطع الفؤاد وقال :

— نعم انا هو .

— انت ؟

— نعم انا القاتل ... هشمت رأس مهنا بالمطرقة ... وقُضي عليه.

وفي اليوم التالي سير بنصار الى المشنقة في ساحة العدلية.

* * *

وعاد السيد ابراهيم الى اشغاله اليومية . وضميره ساكن لكونه قام بالواجب . ولكن قلبه البشري لم يشفَ من الجرح الذي اصابه عند تعاطيه امور الحكم والمحاكم ، والظلم والمظالم . .

وكيف لا ينفطر قلب الحكام عندما ينظرون تنفيذ الاعدام بمن هم اخوتهم في الانسانية ، وقد الجأهم الواجب المقدس الى قطعهم من الجسم الاجتماعي اما بابعادهم في ظلمات السجون او بنفيهم من ارض الاحياء . . . وليس الا الله قدير على ان يوفق بين طرفي نقيض فيبلي للشفاء ويضرب ليرد الخاطئ الى التوبة مبيداً حياة الجسد ليمنح حياة الخلود ، جامعاً بين العدل والرحمة.